من أدب الحزن

وفي ... وناكر

بقلم يوسف جوهر عطية

... وإذ أرسلت روحي في الماضي ذكرتك يا رفيق ، وكانت قد أذهلتني عنك الحياة وقسوتها ، والأيام واضطهادها ، وعاد بي الفكر إلى تلك الأشبار من صحراء « الأقصر » حيث استقرت عظامك من خمس سنين . . .

ما أكفرني بحق الصداقة يا صاحبي ! ما أغلظ هذا القلب اللحمي وما أقساه ! كيف نسيت حبّاً وثّقناه ، وعهداً قطعناه ! كنا نسير في الحياة كلٌّ يده في يد صاحبه ، وكل صورته في قلب رفيقه مرسومة . فلما فارقت الحياة أنكرت يدي الودّ القديم ، وران على قلبي صدأ النسيان ، وابتلع ظلام نفسي ذكراك . . بعد أن كان مكانك عرش القلب ، وبعد أن كانت ملكك كل النفس ، وبعد أن كنت ملجأ روحي القلقة ، وملاذ فكري المكدود . .

سامحني يا رفيق فانني إنسان ، والانسان قد جبل على الغدر وفطر على النكران . . لتكن إنسانيتي عذري لديك . ولا تقس الوفاء بمقياس أهل السماء ، فانني بعد سجين في الجسد ، مأسور الروح ، عبد لنواميس الحياة . كن كما كنت كريماً ، متجاوزاً ، رفيقاً . .

أنت أنت الوفي ، وأنا أنا الناكر . .

وهيا يا رفيق نعود فنصل الحديث ، ونمحو الجفاء ، فانني لحديثك مشتاق ، ولسمرك ظمآن . .

كنا لا نصبر على الفراق ساعات يا صاحبي . لكن ها هي ذي عجلة الزمن تدور دورتها الطاحنة ، وتباعد خمس سنين بيني وبينك ، ولا أعود أرى وجهك بعد أن استوطنت أنت السماء وظللت أنا مغترباً في الدنيا . لقد استرحت في قبرك ، وخلفتني أعيش وحدي في هذا القبر الكبير ! .

لماذا عجلت ذهابك يا رفيق ! . كنا قد تعاهدنا أن نقتسم معاً شقوة الدنيا ، وأن نستقبل متكاتفين قسوة الحياة ، وأن يتقي كل بأخيه غدر القدر ! . لماذا مللت وتركت صاحبك يهيم وحده ! ! أأعياك حمل رداء الهموم وأنت في سن الفتوة وعمر العزيمة ، وآثرت الفرار من هذه الدار ؟ ! . .

لكن لا يا صاحبي . . سامحني . إني لعارف أنك لست من الذين يجبنون ويفرون ، وأن الله هو الذي اختارك واصطفاك . . هو الحزن القديم النائم تحت رماد الأيام تهب عليه ذكراك فتستيقظ جمراته ، وتكوى قلبي من جديد ، فيضل تفكيري ويطيش منطقي ، وأتهمك بما أنت منه بريء ! .

كيف حالك يا صاحبي ؟ ! . .

أكبرت أم أنت فتى كما كنت ! ؟ . هل بقيت لك بسمتك وبهاء طلعتك ، أم شاخت بسمتك وشحب محياك ؟ ! أم أن صور الأرض غير صور السماء ، وأنك هناك دائم الفتوة ، متجدد الشباب ، مسترسل السرور في كنف الله ؟ ! .

كيف حالك ؟ !

أين أنت الآن ؟ أين تقيم روحك ؟ هل أنت معذب أم منعم ؟ قلق أم مطمئن ؟ هل روحك في سلام ؟ .

رجائي قوي أنك في سلام . . فقد كنت باراً . وقضيت أيامك كالزهرة النقية تلثمها في النهار أشعة الشمس ، وتباركها في الليل أنوار النجوم . . كنت جم الفضائل . عشت وديعاً كطير الأفنان . كنت مصباح البيت في الهدى ، وتبراس الخلق الكريم

إني مطمئن عليك يا رفيق ، وعارف بحظوتك عند الله ، وبمقامك في جوار الملائكة . . يهنيك نصيبك . يهنيك انك تخلصت من الدنيا قبل أن تدرك نفسك المطامع ، وتلوثها الشهوات ، وتشوهها أمراض الأغراض ، وتدفعها قوى الشر في مزالق الخطيئة . لقد نجوت ، وخلفتني وحيداً في الحياة ، في سوق النفاق ، أكابد الخسائر وأتجر بقواي ، وأنفق من فضائلي ، وأقامر بأيامي ، وأصارع حظي الشقي . .

يا صاحبي . . لقد كلت قدمي . تعبت ، هرمت روحي وأنا في شرخ الشباب . . وها هي ذي آلامي ترهقني فأفرّ إلى الماضي ، وأذكرك . . وهأنذا ألجأ إلى حنانك كما كنت أفعل وأنت في الحياة . . هيا نجدد العهد ، ونسمي إلى اللقيا في عالم الوهم ؛ حتى تجمعنا الحقيقة في الخلود ، فنعود إلى العزف على قيثارة حبنا القديم ، ونسترد ألحاننا الضائعة . . .

يوسف جوهر عطية